

أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذی

« رب يسر وأعن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »

قال الشيخ الإمام العارف ، أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذی رحمه الله تعالى :

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار قدرته ،
وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مردداً على القلوب ،
وعلى ألسنة الخلق والخلیقة ، لما علم في غيبه ، فأنبأنا في
تنزيله ، فقال جل ذكره : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾^(١) .

فأعلمنا لما خلق ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٢) . فقال أهل اللغة : إلا ليوحدون ، ومثل
ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾^(٣) يعني نُوحِدُ ؛ لأن في

(١) سورة الجاثية ، معظم الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية رقم ٥٦ .

(٣) سورة الفاتحة ، جزء من الآية رقم ٥ .

توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو ، إقرار له بالملك والقدرة^(١) وإضافة الأشياء إليه ، فهذه الكلمة تنتظم المدح .

وأباح ذكره على كل حال ، تقديمًا له على سائر الحالات ، وأعمال البر ، وحصر ما سواه من الأفعال في أوقات مخصوصة ، مع ما ذكر في الكتاب ، وجرت به الأخبار عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم بتفضيل الذكر على سائر الطاعات ؛ لأن في الذكر مدحه .

وجاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى جده » حدثنا بذلك الجارود قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله عز وجل ، من أجل ذلك حرم الفواحش » .

(١) وإياك نعبد ، أى نقر لك بالعبودية وحدك لا شريك لك .

ونذب العباد في غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره^(١) ، ويذكروا عنه جميل صنائعه ، فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢) في كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن ، وفي كل اسم له مدحه ، وجميل ذكره .

ج ودعاهم إلى توحيده ، فقال : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا أَنَا﴾^(٣) وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٤) أى وحدون .

لأنك لا تكون له عبداً حتى يكون لك رباً ، لا شريك له ، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد ، فهو وإن كان

(١) الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يستطيع الإنسان أن يحفظ ما يعنيه من المعرفة وهو كالحفظ ، إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء ، القلب أو القول « الفيروز ابادى ، وبصائر ذوى التمييز جـ ٣ ص ٩ » .

(٢) سورة الأعراف ، جزء من الآية ١٨٠ .

(٣) سورة النحل ، جزء من الآية رقم ٥١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢٥ .

له عَبْدًا من طريق الملك ، فالعبد بنفسه لم يُصَيِّر نفسه عبدًا ، فيكون قد وَحَّدَهُ وعَبَدَهُ ، وإنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع ، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى ، فمن أطاع بأمر الله فهو مطيع لله .

ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوحدوه قلبًا وقولًا وفعلًا . فمن قبل ذلك منه جُمْلَةً ، فاستقرت المعرفة بأنه واحد ، فاطمأن به قلبه ، وترجم به لسانه عما في ضميره ، وعزم على الفعل مائلاً له ، فقد آمن به ، وهذا كله من العبد في وقت واحد ، فركب فيه الشهوات والهوى ، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم^(١) ، ويغوصون غوص النون في البحر^(٢) .

وجعل القلب ملكًا على الجوارح ، فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وتزعج القلب ، والشيطان يمينه ويزين له ويعده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه .

(١) يؤيد هذا حديث : « إن الشيطان ليجرى من أحدكم مجرى الدم في عروقه » .

(٢) النون : الحوت .

فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين
له العدو ، ومال به الهوى حتى يفعل الفعل الذى يخيّل إليك
فى الظاهر أنه لم يؤمن بعد ، فهو موحد بالقلب واللسان .

ولكن تغلبه الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوى ،
ووسوسة هذا العدو والتزئّن غلب على القلب ، لا على ما
فى القلب ، ممّا فى القلب من المعرفة ، فالقلب به مطمئن ،
ولكن صار مأسورًا مقهورًا ، وهو أبدًا لمن غلب عليه
وقهره .

فخلق اللوح ، وجرى القلم بمقادير الخلق ، وخلق
السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والليل والنهار ،
والملائكة ، والجنة والنار ، والجن والشیاطین ، والجبال ،
والبحار ، والدواب ، والأقوات ، والمعایش ، وسائر
الخلیقة .

ثم خلق آدم عليه السلام ، فاصطفاه ، وجعله بديع
فطرته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء ، وأبان فضله ،
وكرّم بنیه ، وحملهم فى البر والبحر ، وفضلهم على كثير ممن
خلق تفضيلًا ، وسخر له ولذريته ما فى السموات والأرض ،

واستخرج ذريته من ظهره ، وأخذ عليهم الميثاق^(١) ثم ردهم إلى صلبه ، ثم نقلهم من الأضلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى دار الدنيا ليعبدوه ، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق ، بألا يشركوا به شيئاً ، إلى آجالهم التي كتبها في المقادير ، إلى أن تنقضى مدة الدنيا ، فيبعثهم للجزاء ، وتُبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وليجزى كل نفس بما كسبت ؛ ليكونوا فريقين : فريقاً في الجنة ، وفريقاً في السعير .

فمن تَوَرَّ الله قلبه بالإيمان قويت معرفته ، واستنارت بنور اليقين ، فاستقام به قلبه ، واطمأنت به نفسه ، وسكنت ووثقت ، وأيقنت ، وَائْتَمَنَتْ عَلَى نَفْسِهَا ، فرضيت لها به وكيلاً ، وتركت التدبير عليه .

فإن وسوس له عدو بالرزق والمعاش لم يضطرب قلبه ولم يتحير ؛ لأنه قد عرف ربه أنه قريب ، وأنه لا يغفل ولا ينسى ، وأنه رءوف رحيم ، وأنه رب غفور رحيم ، وأنه عدل

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف . الآية ١٧٢] .

لا يجور ، وأنه عزيز لا تمنع منه الأشياء ، وأنه يُجِيرُ ولا يُجار عليه .

فكما خلقه محتاجًا مضطرًا ، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى ، لا من حيث يريد العبد ، على الهيئة التى يريد الرب ، لا على الهيئة التى يريد العبد ، وبمقدار ما يريد الرب ، لا بمقدار ما يريد العبد ، وفى الوقت الذى يريد الرب ، لا فى الوقت الذى يريد العبد^(١) .

فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا ، إيمانًا به ، وقبولًا له ، ولم يستقر ذلك الإيمان فى قلوبهم ، حتى إذا كان وقت الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت ، واشتغلت عن خالق الأشياء ، ومالك الملوك ، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان فى قلوبهم سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقربه منهم ، وقدرته عليهم .

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : عبدى أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك فيما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد . ولا يكون إلا ما أريد » .

فهذا شأن الرزق والمعاش . وفوضوا أمورهم فيما سوى
المعاش إليه ، واتخذوه وكيلاً ؛ لأنهم عرفوا^(١) بأنه رءوف
رحيم منهم بأنفسهم ، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد
بأنفسهم ؛ لأنه خلقهم فصورهم ، وركبهم وأحسن
تقويمهم ، وسوى تعديلهم ، فلم يكن لهم أنفسهم من العلم
والتدبير ما دبر لهم ، وعرفوه ملكاً قادراً قاهراً ، يفعل ما
يشاء ، وقد سبق علمه فيهم ، مما يكون فيهم ولهم وعليهم ،
وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه في اللوح المحفوظ ؛
ليكون أوكد في قلوب العباد ؛ لأن سابق العلم غائب عن
القلوب لا يدرك كنهه ، واللوح قد خط بالقلم ، فيه أمر
محدود ، وشخص مخلوق ، ويدرك بالقلوب معاينة .

فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعاينه
القلوب ، ولا يمكن توهمه ، فخلق اللوح ، وأثبت مقاديرهم
فيه ، لا حاجة به إلى ذلك ، وليكون أثبت على القلوب ،
لتسكن النفوس ، وتستقر على ما جرى القلم به .

فإذا سكنت النفوس تفرغت القلوب لعبادته ، وحفظ
حدوده ، وإقامة أموره ، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب

(١) في المخطوط : لما عرفوا .

فيما يراد بها ، وما يكون وما يحدث ؛ لأنها قد أٌيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم ، وعند الإياس تسكن النفوس ، وإنما دعانا إلى أن نعبده ونقيم حدوده ، ونقيم فرائضه ، ونتجنب مساخطه ، ولنا قلب واحد ، فأثبت في اللوح أرزاقنا وسعينا ، وآثارنا ، وأحداثنا ، ومدة آجالنا ، وعامة أمورنا ؛ لتطمئن النفوس ، وتخلص القلوب من وساوسها ، فتعبده بفراغ ، وكل ذلك منه رحمة علينا ، وبين ذلك في تنزيله ، فقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ ﴾^(١) أى من قبل أن تُخلق تلك المصيبة .

ثم بين لما فعل ذلك ، فقال : ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^(٢) ، فإن التأسى على الشيء الذى لم يقدر لك فى اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك ، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المُعطى ، حتى تأثر وتبطر بما تعطى ، فتهلك .

(١) سورة الحديد - جزء من الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الحديد - جزء من الآية ٢٣ .

وإنما المُبتَغى منك في ذلك أن تلهو عن الغائب ، وتفرح في الموجود الذى أتاك بالأهل الذى أتاك ، ثم بفضلِهِ ورحمته عليك ، وإلى هذا ندبك فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى في شأن الرزق : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٣) . أى من يأكل تلك الحبة ومن يُرزقها .

فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين ، وغلبة الهوى ، وحرارة الشهوات ، خاطب نفسه فقال : يَا أَيَّتُهَا

(١) سورة يونس - الآية رقم ٥٨ .

(٢) سورة هود - الآية رقم ٦ .

(٣) سورة الأنعام - الآية رقم ٥٩ .

النفس لِمَ تضطربين ؟ قالت : لأني محتاجة ، وُخِلِقْتُ مضطرة ، ذات شهوات ، لا أبصر أمكنة الأشياء ، ولا أعرف أوقاتها ، ولا أعلم مقدارها ، واشتبهت على كيفية أسباب وصولها إلي . فقال لها : أيتها النفس إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتكفُّله أثبت عندك وأوكد وأقوى من الذى تُبصِرُنه على المشاهدة .

لأن البصر ربما أخطأ ، وربما كان مسحوراً ، يرى أنه كذلك ، وليس كذلك ، وقول رب العالمين أصدق وأبر ، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك .

فلو أبصرت الشيء الذى يحويه ملكك اطمأنتِ وسكنتِ ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرايتِ لو كان لك ديوان فيه غرماء مُمْلَأَةٌ ^(١) أسماءهم ، مكتوب فيه على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشرة آلاف درهم ، أكنت تطمئنين ؟

فإن وجدتِها قد طابت وسكن اضطرابها ، لما وجدت في الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فانشر

(١) فى المخطوط : ملاء . . والغرماء : الذين عليهم ذنن .

عليها ديوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد ، المنسوخ في اللوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول رب العالمين ، فَقَلَّبْ أَوْرَاقَهُ ، حتى تقف بها على آية الرزق ، حين يقول تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(١) .

ثم قل لها : أيتها النفس المطمئنة ، وجدتِ في ديوانك على هؤلاء الغاوين ما وجدتِ وفرحت ، وأمنت الفقر فطبت ، فهذا في المصحف قوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(٢) أهذا أعظم شأناً ، وأصدق وأبر وأوفى ، أم الذى وجدتِ في ديوانك ؟ أما تستحِينَ أن تلقى ربك بهذه الحالة ؟

ولكنى قد فهمت لِمَ اضطربتِ ، بعد أن أيقنت بضمان ربك ، إنك ذات شهوات ، فيك شهوة العز ، فأنت تهربين من الذل ، وفيك شهوة ألوان الطعام ، فأنت تهربين من البؤس ، فيك شهوة إدارك المنى ، فأنت تهربين من فوتها ،

(١) سورة هود - جزء من الآية رقم ٦ .

(٢) سورة هود - من الآية رقم ٦ .

وإنما تضطربين لأنك أردت أن يكون رزقك في وقت ، وأراد ربك في وقت آخر ، واشتيت أن يكون على صفة ، وأراد ربك غير ذلك ، وأردت من وجه راحة ، وأراد ربك من وجه تعبٍ فيه ، وأردت كثيرًا ، وأراد ربك أقل من ذلك .

فأصبحتِ وأمسيتِ مخالفة لربك في مشيئاته وإراداته ، فحملك ذلك على الشهوة حتى غلبتك ، فرمتك في أودية المهالك ، فأقبلت بهلعك وجزعك على حطام الدنيا ، من سبيل الخبائث والأفذار والشبهات والأوساخ ، لسكون نفسك به ، ثم منعتِ حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام .

فقطعت الأرحام ، وباغضت العباد ، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين ، وهربت من إنصافهم ، وجفوت أهل الحرمة ، فأصبحت وأمسيتِ ظلومًا غشومًا ، ووعد الله ينادى في سمعك قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأنبياء - الآية رقم ٤٧ .

فهل تعرف مقدار الخردة من الظلم ما هو ، وكيف يكون ؟ لو نجح^(١) فيك هذا الوعيد لطارت منك الشهوات ، ومات منك الهوى .

فأهل الفهم راضوا أنفسهم ، وتدبروا فقالوا : كيف لنا بألا نأسى على ما يفوتنا من الدنيا ؟ وتمنوا إليه حاجة ، وطلبوا من أين يدخل الضرر عليهم .

فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج في أنفسهم ، تحدثوا بها وتمنوها وطلبوها على التملك والاعتدار ، وأطعموا أنفسهم في إصابتها ، فلما فاتهم وجدوا الأسى والحزن ، على فوت ذلك ، فهموا أن هذا إنما دخل عليهم ، من أجل أنهم تمنوها وأطعموا أنفسهم في إصابتها ، فوجدت النفس حلاوة وجودها ، وقوى الهوى ، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات وقطع المنى ، فخمدت نيران شهواتهم ، ففارقوا الهوى جهدهم ، لمجاهدتهم إياه ، حتى ذلل وانقمع ، وكلما بدا لهم أمر أو خطر بياهم لم يتمنوا ، ولا أطعموا أنفسهم ، وانتظروا ما يبرز لهم من المسطور في اللوح السابق ، قبل خلق السموات ، وسلموا لربهم ، وانقادوا لحكمته كالعبيد .

(١) لو نجح فيك : أى أفاد ونفع . ويقال : ونجح فيه القول والخطاب والوعظ : عمل فيه ودخل وأثر [ابن منظور ، لسان العرب] .

فعاثوا في الدنيا بأرفع درجة ، وأكرم منزلة ، عند أنفسهم ، وأنعم بال ، وأقر عين ، بهذا الدين ، وماتوا بروح وريحان ، ولقوا رباً غير غضبان ، رضوا عن مولاهم فرضى عنهم ، فأيدهم في الدنيا بروح منه ، وفي الآخرة قُرْبهم ولطف بهم : ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) . أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، استنارت قلوبهم باليقين ، فصارت في نوائبهم كالمعينة .

كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر ، أو خوف أو أمن ، أو ذل أو عز ، أو بلاء أو نعمة ، حرقت أبصار قلوبهم ، فأبصرت في لحظة أن هذا الأمر قد كان في اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن ، وهو حكم الله علينا ، لم يكن فيهم من الشهوات ، ولا من الهوى ، من القوة ما يثقل عليهم قبوله من ربهم ، وتلقوا أمره بالهشاشة^(٢) وتلاقت النفس وبشر

(١) سورة المجادلة - من الآية رقم ٢٢ .

(٢) الهشاشة : الارتياح والخفة للمعروف . وأهش هشاشة ، إذا خفت إليه وارتحت له وفرحت به « لسان العرب » .

الوجوه ، فهم الراضون ، والصابرون ، قبلوا على كره ، من نفوسهم وجهد ؛ لأن شهواتهم حية قوية في نفوسهم ويقينهم ضعيف ، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك ، ، ورأفته ورحمته عليهم ، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة . فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس ، فتذهب بالمرارة ، كما تجد المرارات في الأدوية ، فتمزج بالعسل والسكر ، وما أشبه ذلك ، فيغلب عليه ، فتفقد تلك المرارات منها .

وإنما تقع حلاوة صنع الصانع في قلبك ، على قدر حبك للصانع ، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره ، وكلما كنت به أعلم ، وكان هو أرفع منزلة في الأشياء ، كان قدره عندك أعظم ، فهو إليك أحب .

ولذلك قيل : أشدهم حباً له أعلمهم به ، وأعرفهم له ، ومنه قول بديل العقيلي : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها » . رواه ابن المبارك ، عن سفيان الثوري ، رحمهما الله تعالى ، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بديل رحمه الله .

فمن عجز عن الرياضة ، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيثاته ، على حد الإيمان . وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه على ثقل من نفسه ، وتنغيص وتكدير من عيشه ، وجهد من قلبه ، ومن راضها وأدبها استقامت في السير ، وانفطمت عن أخلاقها ، وتداركه ربه بالنصر والمدد ، وأنجز له الوعد .

فقد بين هذا الشأن في آيتين من كتابه ، فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾^(١) فأمر بمجاهدة النفس وفطمها عن أخلاق السوء عن أن يريد غير ما يريد الرب جل وعلا ، ولو تركنا في جميع أعمارنا لكان هذا أمراً هائلاً عظيماً . لكنه وعد في آية أخرى أن يخلصنا من وباله ، ويؤدبنا ويصيرنا ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِينَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٢) . فهو هاديك ، وهو معك في النصر والتأييد ، فرحمته منك قريبٌ ممَّنْ يقويك ومن يدرّكك .

(١) سورة الحج - من الآية : ٧٨ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم : ٩٦ .

وإنما الشأن أن تجاهد في بدء أمرك حق جهاده ، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثاني قد أنجزه لك ، فإذا هداك السبيل ملأ قلبك نورًا ، وكلاءة ورعاية ، حتى لا تزيع ، فهو المنيب ، المقبل على ربه ، القابل لأمره بالهشاشة والسرعة .

ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام ، حكى عنهم الرب تبارك وتعالى ، حيث قالوا : ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾^(١)

والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك ، ثم ترضى بما يصنع بك ، فعلموا في قلوبهم أنهم إنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله . ومما يحقق ما قلنا في شأن الراضى والصابر قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما : « فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا وَالْيَقِينِ فَافْعَلْ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاصْبِرْ ، فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا وَمَعَ الْكُرْبِ فَرَجًا » . حدثنا بذلك على بن حجر قال : حدثنا بذلك

(١) سورة إبراهيم - من الآية رقم ١٢ .

إسماعيل بن عياش ، وعيسى بن يونس ، قالوا حدثنا عمر مولى غفرة ، عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد بيّن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المنزلتين فى هذا الحديث .

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضى ، وأن الراضى باليقين أدرك ذلك ؛ لأنه عاين عواقب الأمور . وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم افتقده من حيث وضعه ، وهو لا يملك شيئاً سواه ، فثار فى رأسه كالثيران من شدة الوجد لفقده ، حتى تبين ذلك فى أحواله ، وفى وجهه ، وظهر اغتمامه بذلك ، فقال له رجل ملىء ، وفئ برّ صدوق : أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم ديناراً ، فسكن إلى قوله ، وسكن بعض ما به من الوجد ، فلا يخلو من الاغتمام ، ويضيق صدره ، بمضى هذه المدة ، فهو يصبر على كرهه ، إلا أنه مازج بما أطمع فيه ، الوجد الذى فى نفسه فخف ما به ، وهو كاره صابر .

ورجل آخر افتقد كيساً من دراهم ، وفى ملكه ملء بيوت من جواهر ، كل جوهر لا يدرى ما قيمته ، فما تبين عليه فقد ذلك الكيس ، ولا يبالى به . وهو فى ذلك كالذى افتقد

فَلَسًا وعند كيس من الدراهم . فالأول هو غنى بالمال ،
والثاني غنى بربه ومليكه .

فالأول فرح بالمال والأحوال ، والثاني فرح بالله ، ثم
بفضله ورحمته ، عامة ملجئه ومفرغه إلى الله عز وجل ،
فالأول قلبه مأسور بالأشياء ، قد ملكته حلاوة الأشياء والثاني
سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل ، فالأول قَلْبُهُ بالأشياء ،
وبالأشياء تعلُّقه ، والثاني مشغول بالله ، وإليه منيب ، وبه
متعلق .

ومما يحقق عندنا حال هذا الثاني ، ما أتت به الأخبار عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن السلف الصالح ، من
بعده ، حدثونا به عن ابن المبارك ، عن صالح المري ، عن
حبيب بن محمد ، وهو العجمي رحمه الله ، عن شهر بن
حَوْشَب ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، ولم يرفعه ، وأما غير
ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
قال : « يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام : يا
جبريل انسخ من قلب العبد الحلاوة التي كان يجدها به ،
فينسخها من قلبه ، فيصير العبد وَالَهَا » . .

فإن اعترض في هذا القول معترض بالإنكار ، وقال هذا غير موجود في الأنبياء والرسل ، عليهم السلام ، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا يكون في المصائب ، ويجزون عليها ، ويجدون ألم الأشياء المكروهة ، ويفرحون في المحبوب .

فيقال له : يا عاجز ، وما يدريك من أى شيء بكت الرسل وحزنت ؟ وكيف كان فرحهم ؟ ومن أى شيء فرحوا ؟ فرب فرح محمود ، وعلى ذلك حب الله عباده ، ورب حزن ممدوح أهله في الدنيا والآخرة ، ونطق الكتاب بالثناء عليهم ، والبكاء على سبعة أنواع فما فوقها ، كل نوع منها من شيء غير الآخر ، فهل ميزت بين هذه الأشياء ؟ وهل أُطِّلِعْتَ مَطَّلَع هذه المنازل ، أم أنت رجل اتبعت شيئاً من هذا العلم تفخر به ، وترأست به فأنت تريد أن تطفئ نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون^(١) .

فأما فرح المتقين بفضل الله ، ورحمته ، وعلى ذلك دل عباده ، وأما فرح الأنبياء والصديقين فيه ، تبارك اسمه ،

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [سورة التوبة - الآية رقم ٣٣] . وقوله تعالى : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [سورة التوبة الآية رقم ٣٢] .

ولذلك روى لنا عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : قرأت في بعض الكتب : « يا معشر الصّديقين تنعموا بذكرى ، فإن ذكرى لكم في الدنيا نعمي ، وفي الآخرة جزاء » .

وقال في حديث آخر : « آثرتموني على شهواتكم ، ورضيتم بي بدلاً من خلقى ، فبى فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا ، فوعزتي ما خلقت الجنان إلا من أجلكم » . وحدثنا عبد الرحيم بن حبيب الفارياني ، في حديث له ذكره عن حبيب العجمي ، رحمه الله ، أنه كان يقول (ما) تفسيره : « يارب فرحت حتى كدت أموت من الفرح ، كونك لى رباً^(١) وأنا عبدك : » خدایا عجب است ممکن إزشادی بمیرم کف مراجو تُوَاخذنی » .

وأما بكاؤهم ، فكانت الأنبياء عليهم السلام ، أرحم البرية ، فكلما ازداد العبد من الله تعالى قُرْبَةً ، كانت له من الرحمة أكثر ، وكذلك روى لنا عن ابن المبارك ، عن عبيد بن عمير ، قال : « ما ازداد العبد من الله تعالى قُرْبَةً ، إلا كان له من الرحمة ما ليس لغيره » . حدثنا بذلك الجارود بن معاذ

(١) في المخطوط : « مثلك لى رب » .

رحمه الله ، عن علي وعمير بن عبد الله ، فكانوا في المصائب يرحمون ، فيكون ما يرون . وكانوا أعلم الناس بالموت ، ولكنه مرارته ، وعِظَم شأنه ، وخطَر المَقْدَم على الله عز وجل . فكانت قلوبهم ترق لما يرون .

ألا ترى أنه قال في حديث إبراهيم ابنه : « إنما هذه رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم » . فكان يبكى وبعد ذلك رحمة ، ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل .

ألا ترى أنه عاب من لا يرحم ، فكانت تلك منه رقة ومن هؤلاء القوم فتنة وصباة . وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام ، أنه قال ليوסף عليه السلام : يا بني إنما حزنت عليك مخافة . وأيضًا من طريق آخر ، قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق ، هيج منهم أشياء ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار .

وفي هذا كلام إلى غاية الطول ، قد بيناه في كتاب « صفة القلوب وأحوالها وهيئة تركيبها »^(١) وما يتردد في النفس في صدور القلوب .

(١) كتاب صفة القلوب منه مخطوطة بمكتبة قسطنطيني رقم ٢٧١٣ ، ومكتبة